الرجل في الحجرة المقابلة

كنت اقف في الممر المعتم حتى ينتهي خادم اللوكاندة من اعداد الفراش .

وسألته .. ان كان لديهم بخاخة ؟

وقال .. ان الحجرة نظيفة .

وانتظرت حتى انتهى وخرج من الحجرة . وطلبت منه ان يحضرها . وغاب بعض الوقت . ثم عاد . وبدأ يبخ الفراش . وكنت لا أزال واقفا في الممر . وتسربت رائحة البودرة الى الخارج . وسعلت كثيرا .

وخرج الرجل من الحجرة التي في مواجهتي . وظل واقفا أمام الباب ينظر في اتجاهي الممر . وقال في صوت خافت :

ـ كان أحدهم يسعل ؟

ثم تقدم نحوي . وحين أصبح في دائرة الضوء امام حجرتي .. رأيت انه بملابسه الداخلية . وكانت ساقاه نحيلتين كثيفتي الشعر. وبدا انه استيقظ لتوه من النوم .

وقلت له .. انني سعلت منذ قليل .

كان يقف قريبا مني .. يجفف العرق حول رقبته . وقال :

ـ ظننته حلما .

ومال برأسه . ونظر داخل حجرتي . وسألني :

ـ هل وجدت بها شيئا ؟

ـ ابدا .

ـ أنا ايضا .. الحجرة عندي نظيفة .

ووقف صامتا يحدق في وجهي . وكنت اقف بعيدا عن مدخل الحجرة المضيء . وعندما اوشك ان يستدير قال فجأة :

ـ الم أرك من قبل ؟

ـ لا اعرف .. انها اول مرة ..

ونظر الي بعض الوقت . ثم سار الى حجرته . ووقف لحظة هناك وظهره للممر . ثم دخل . واغلق الباب .

* * *

قال لي الخادم وهو يعد الفطور :

ـ لقد سأل عنك !

ـ من ؟

ـ جارك في الحجرة المقابلة .. سألني عن اسمك .

ـ وقلت له ؟

ـ قلت .. انني لا اعرفه .

وصمت . ثم قال :

ـ وسألني عن اليوم الذي جئت فيه .

ـ وقلت له ؟

ـ حين قلت له .. وقف .. ودار حول السرير .. وقال انه نفس اليوم الذي جاء فيه .

كان قد انتهى من اعداد الفطور . ووقف عند طرف المنضدة :

ـ يقول .. انه سيذهب للطبيب اليوم .

وظل واقفا. وبدا انه في انتظار أن اقول شيئا. ثم استدار وخرج.

* * *

كنت اقف بالنافذة . وكان المطر يتساقط خفيفا بالخارج . ورأيت شجرة التوت بعد أن بللها المطر . وكانت فروعها التي في اتجاه النافذة مقطوعة . وخمنت انها كانت تمتد الى داخل الحجرة.

وجاء الخادم . وسألني .. ان كنت اريد شيئا .

كان يقف عند الباب يجفف يديه . ثم قال وهو يشير برأسه الى الخارج :

ـ الطبيب عنده .. قال لنا .. ان حالته سيئة .

ودخل . ووقف بجوار المنضدة . وحملق نحو الزهرية الخالية فوق سطح الدولاب . وكنت قد نقلتها في الصباح من امام المرآة .

ـ لم ينم ليلة امس . طول الوقت وهو ينادى . وحين ذهبت اليه في احدى المرات ، قال لي .. انه ايضا يريد ان يبخ حجرته .

وقلت له .. ان ينتظر حتى الصباح .. غير انه لف نفسه في البطانية وترك الفراش . وقال .. انه سيجلس على المقعد حتى انتهي.

استلقيت على السرير . وخلعت ساعتي . ووضعتها بجواري على المنضدة الصغيرة . وأطفأت النور . وكنت اسمع وقع قطرات المطر على زجاج النافذة . وسمعت ايضا اصواتهم في الممر وهم يذهبون .. ويعودون . وكانوا يتحدثون في همس . ثم هدأ الممر . واطفئت الانوار في الخارج . وارتفع بعد لحظة صوت سعال حاد . خمنت انه سعاله في الحجرة .

* * *

ايقظني الخادم من النوم . كان الوقت متأخرا . وقال لي .. انه مات .

كنت مرتكزا على ذراعي انظر اليه . ثم نهضت من الفراش . وتبعته .

كان الضوء قويا في الحجرة الاخرى . وكان صاحب اللوكاندة ينحني ـ لحظة دخولي ـ على الفراش . ووقف الكاتب والخدم بجوار المرآة المستطيلة .

واستدار صاحب اللوكاندة . ونظر الي . ورأيت الرجل ممددا . كان مغطى بالملاءة . وقدماه الصغيرتان خارج الغطاء . وحول ذقنه فوطة بيضاء .

وجذبني صاحب اللوكاندة الى النافذة . وهمس :

ـ كان يسأل عنك .. هل تعرفه ؟

ـ رأيته مرة هنا .

وضغط ذراعي بأصابعه وهو يقول :

ـ هنا ؟

وأشار الى الخدم . فتقدموا نحو الفراش . ورفعوا الرجل وأداروه . وجعلوا رأسه في ركن السرير باتجاه النافذة .

والتفت صاحب اللوكاندة نحوي . وهمس :

ـ كان يقول .. انه رآك كثيرا من قبل ؟

وتركني فجأة . واتجه الى الفراش . وجذب الملاءة فوق ساقي الرجل العاريتين . ثم عاد . ووقف بجواري .

ـ وقال .. انه لو رآك مرة اخرى فسيتذكر .

ونظر في وجهي بعينيه المرتعشتين :

ـ وطلب منا ايضا ان ننادي عليك .. اكثر من مرة وهو يطلب ذلك .. غير انك كنت نائما .. واردت ان اوقظك .. ليتني فعلت. ظننت اننا نستطيع ان ننتظر حتى الصباح .

ظل وقتا يحملق في وجهي . ثم استدار الى الخدم . وكانوا يقفون الآن عند الباب :

ـ يقول انه لا يعرفه !!

وجلس على مقعد عند المرآة :

ـ اول مرة يحدث هذا هنا ..

ونهض مرة اخرى . وسار الى الدولاب . وفتحه ونظر داخله . ثم عبر الحجرة . وجلس عند رأس الرجل . وضم عباءته بين ساقيه. وراح يرتل في هدوء . وكان الخدم ينظرون الي . ثم استداروا ـ حين اشار لهم صاحب اللوكاندة ـ ووقفوا بجواره . وأخذوا يرددون الترانيل وراءه .

كان الضوء حادا في عيني . ونظرت خارج النافذة . وأحسست بالهواء البارد . وانتظرت حتى انتهوا من الترتيل . واتجهت الى الباب .

وقال صاحب اللوكاندة :

ـ كنت اظن انك تعرفه ..

وأغلقت الباب ورائي .

كنت متعبا . وسحبت مقعدا الى النافذة . وأطفأت النور .

* * *

في الصباح . حملت حقيبتي . ورأيتهم من خلال الباب المفتوح. وكانوا لا يزالون داخل الحجرة . وصمتوا حين مررت بالباب .

القاهرة

محمد البساطي